

## ضالة المعرفة وتشويه التاريخ لدى أدونيس

أ.د. سيار الجميل

### مقدمة :

وقع سمعي صدفه على " فيديو " يتضمن حواراً تلفزيونياً مع ادونيس[1] الشاعر والكاتب السوري المعروف الذي كتبتُ عنه فصلة منذ سنين في كتابي " نسوة ورجال : ذكريات شاهد الرؤية " ، وادونيس اسم اسطوري فينيقي مستعار اختاره صاحبه لنفسه بدل اسمه العربي الحقيقي (علي أحمد سعيد إسبر) . ولد عام 1930 في قرية قصابين التابعة لمدينة جبلة في سوريا ، وكان قد غادر سوريا نحو لبنان منذ شبابه المبكر ثم استقر في فرنسا حتى اليوم . والحقيقة ، انني لم استغرب من حديثه الذي كشف فيه اليوم عن نفسه تماماً بعد ان أخفى أوراقه الحقيقية تحت عباءات شتى طوال حياته .. لم استغرب لما قاله ، لأنني ادرك ادراكاً عميقاً ، ومنذ سنين ان الرجل تتحكم بواطنه في عقله ، وقد ترسخت فيه بقايا ترسبات ثقافته المحلية الشعبية والانغلاق عليها بالرغم من ادعائه التحرر والحداثة والتقدم ، وانه يجهل تماماً الرؤية الواضحة الى تاريخنا العربي والاسلامي بموضوعية ، وبانت عارية دوافعه ضد تراثنا العربي كله ، فاستخفافه بتاريخنا واعجابه منقطع النظر بتاريخ اوروبا دليل على كونه منقطع تماماً عن انتمائه العربي ، وان انحرافاته تدل دلالات فاضحة عن انكاره جذوره الحضارية ، ناهيك عن عقدة النقص التي تربى عليها في بيئته المغلقة وتربيته الباطنية والتي يبرزها في كتاباته واحاديثه بأساليب غير مباشرة ، فينطلي كلامه على الكثير من الناس الذين لم يعرفوه معرفة معمقة . وكلامه هذا ليس غريباً عني ، فقد كنت قد سمعت عن ندمائه من بني جلدته منذ أكثر من 35 سنة ما يشابهه ، اذ كانوا يتداولونه سراً في ما بينهم ، ولكنهم اليوم خرجوا من أوكارهم ليكونوا اكثر توحشاً وضراوة ، واكثر صراحة وشعوبية لبث كراهيتهم وأحقادهم علناً من دون أي رقيب ، ولا أي ناقد أو حسيب ، وفي زمن تباح للشعوبيين والطائفين والانقساميين أفكارهم الشريرة ، وصدق من قال بأن أوطاننا مهددة من دواخلها ..

### تفكيك خطاب أدونيس وتشريحه ونقده

ان من يسمعه لا يستنكر بعض أحكامه ، بل يحاكمه على مواقفه التي يحدّد بعضها جهله التام بالموضوع الذي يتحدث فيه واستخفافه به أساساً ، أو التي يكشف بعضها الاخر جهالته بالتاريخ ، اذ أنه لم يقرأ التاريخ مطلقاً كما يبدو ، ولم يكن في يوم من الايام مؤرخاً ، فهو يعدّ نفسه شاعراً ، ويصنّف نفسه (مفكراً) وهي كلمة توصيف مكابر للذات ، وقد غدت اليوم مبتذلة على أشد ما يكون الابتذال في الثقافة العربية ، وفي الفضائيات الاعلامية .. أو انه يتعمّد ذلك لغرض في نفسه ، أو غايات دفيئة ازاء ثقافة عربية يكرهها كرهاً ويمقتها مقتاً شديداً ، وحسناً أنه ظل شاعراً يكتب طلاسمة والغازه ، او كاتباً يكتب انشائيات قوية مليئة بالالتباسات والمفاهيم والتعابير المستعارة التي يخدع الناس بها بعد ان يأخذ من هذا مفاهيمه ، أو من ذلك أفكاره واتعابه . دعوني أتوقف عند بعض أقواله بالنص لنخضعها للنقد بعد تفكيكها ، وتوضيح مقاصده منها :

### اولا : يقول : " الدولة الاسلامية الاولى بدوية تأسست على العصبية القبلية " .

هنا يقرن أدونيس القبيلة بالبدواة ، وهذا خطأ في التاريخ ، وخطأ كبير في سوسيولوجية حياة الامم ، فالبدواة مصطلح له معناه ، وليس شرطاً ان تكون القبيلة رهناً تحتكرها البدواة ، فالمجتمع في مكة والمدينة كان حضرياً مدينيّاً ، ولكنه يتكون من قبائل متوطنة منذ القدم في مكان هي مكة ، ذلك ان قبيلة قريش متوطنة في مدينة مكة ، ولم تكن بدوية رحالة تنتقل في البوادي

من مكان الى آخر ، علما بأننا نتحدث عن زمن كان جزءاً من حقبة عبودية لا يمكننا ان نسحبها منه الى زمننا لندينها .. وان كانت الدولة الاسلامية قد تأسست على العصبية القبلية بزعامة قريش ، فان بريطانيا يحكمها آل ستيوارت منذ القرن الثاني عشر الميلادي حتى يومنا هذا وكذلك بالنسبة الى كل دول العصور الوسطى والامبراطوريات القديمة في الشرق والغرب كال رومانوف وآل بوربون وآل هابسبورك وغيرهم .

وكان حال الدولة العربية هكذا منذ نشأتها ، وانتقلت من الراشدين الى الامويين الى العباسيين ، فما بالك ان تأسست على سلالة آل البيت وحدهم كما يطالب بذلك شيعتهم منذ مئات السنين؟؟

اتريد سحب العصور الوسطى الوسيطة الى عصرنا هذا لتحاسب الدولة الاسلامية الاولى على مقاييس اليوم يا ادونيس ؟ اذا كان هذا ما يدور في ذهنك ، فاسمح لي ان اعلمك باننا نعلم طلبتنا في اقسام التاريخ ، ومنذ بدايات قراءتهم للتاريخ ان يذهبوا بعقولهم ومشاعرهم الى الماضي ليتعايشوا معه ، لا ان يسحبوا الماضي الى معاصرتنا لمحاكمته ! ولماذا اقتصر على الدولة الاسلامية الاولى فقط ، ولم تذكر الدول التي كانت تعاصرها عصرذاك ، او الدول التي اعقبتها ؟ وما طبيعة كل دولة من تلك الدول ؟ ثم لماذا الدولة العربية وحدها ، ونحن نعرف ان تاريخنا ازدهم بتواريخ دول شتى وكلها دول سلالية سواء كانت عند ملوك وامراء الهند والملايو ، او شاهات ايران ، او خانات المغول والتتار ، او سلاطين الترك والآفار وغيرهم في المغرب وافريقيا .. وقد وصفها كارل ماركس وغيرها من دول الشرق بدول الاستبداد الشرقي حسب النمط الاسيوي للانتاج [2] .

### القبائل والأمم

لقد رافقت نقاشات كبيرة الجهود لتحديد القبائل وتوصيفها. ويدرك العلماء الاختلافات بين القبائل السابقة للولاية والقبائل المعاصرة ؛ هناك أيضا جدل عام حول التطور الثقافي والاستعمار. في الخيال الشعبي ، تعكس القبائل طريقة للحياة تسبقها ، وهي طبيعية أكثر من تلك الموجودة في الدول الحديثة. القبائل أيضا امتياز في العلاقات الاجتماعية الأساسية والواجهة بوضوح ، متجانسة ، ضيقة ، ومستقرة. القبائل هي منظمة بين العائلات (بما في ذلك العشائر والأنساب) ، والتي تولد أساساً اجتماعياً وأيديولوجياً للتضامن يكون محدوداً بشكل ما أكثر من "المجموعة العرقية" أو "الأمة". وقد تحدى البحث الأنثروبولوجي والعرقى جميع هذه المفاهيم ، كما يقول مورتن فرايد وبول جيمس وجريجوري ناكي وغيرهم [3] .

### ثانياً : يقول أدونيس : " لم تتوقف الحرب العربية العربية ابدا .. في تاريخنا كله "

هكذا ،بالمطلق يا ادونيس في تاريخنا كله ؟ أية حروب عربية عربية تقصد ؟ كذلك تفقد السيطرة على نفسك ، وانت في غمرة عاطفتك المشبوبة المضادة للعرب لتوزع عليهم أحكامك التي لا وزن لها ، كونها لا تستند الى حقائق تاريخية ولا الى اية حثيات موضوعية ! ولماذا الحروب الاهلية العربية ، وكأنها من طبائع تاريخنا وحده دون المقارنة مع تواريخ أمم اخرى شهدت هي الاخرى صراعات دموية وحروباً اهلية ، بل وشهدت أقسى الاحداث بدءاً بنزاعات قبلية ، وصراعات دينية ، وانتهاء بحروب اهلية .. السؤال المهم الذي يفرض نفسه على شخص مثل ادونيس عاش مغيباً تماماً عن تاريخ العرب بتحقيقاته الكلاسيكية والوسيطة والحديثة يتمثل بـ: لماذا هذا التأكيد على المثالب والسلبيات ، وكأن العرب لم يتعايشوا ، ولم يتحالفوا مع بعضهم الاخر ، ولم يتوحدوا يوماً أبداً لا بين انفسهم ولا بينهم وبين الاخرين ؟ وكأنهم لم يكونوا يداً واحدة في قلب الازمات الحادة والتحديات الصعبة ؟ وان كانت ثمة صراعات سياسية وانشقاقات ايديولوجية ، فلماذا تنسى الانسجام الاجتماعي والتماسك الثقافي الذي حكم المدن العربية بكل أطرافها الدينية والقومية على امتداد اكثر من الف سنة ؟ تمنيت ان تقرأ وتتأمل قليلاً كتب المؤرخ المستشرق الفرنسي اندريه ريموند André Raymond في الذي كتبه عن المدن العربية على امتداد العصور الحديثة [4] . وكيف توهجت الحياة فيها ، وكيف عاش الناس فيها

مقارنة بمدن أوروبا ابان العصور الوسطى ؟ وقارن صراعات العرب السياسية بصراعات الآخرين وغيرهم من الأمم ، ستجد ما عاناه الجرمان والوندال والفرنجة والساكسون والرومان والبيزنطيين والساسانيين وغيرهم من الصراعات الداخلية ابان العصور الوسطى الاولى والوسيطه والمتأخرة ؟ وستجد بما لا يقبل مجالا للشك انك تقوم بنشويه تاريخنا عن قصد ، وان حجم الانحرافات في ارائك كبير جدا ، لم يقم به حتى الاعداء .

### **ثالثا : يقول : " لم نستطع أن نبني مجتمعا مدنيا واحدا على مدى 14 قرنا " .**

ما تعريفك للمجتمع المدني يا ادونيس ؟ هذا مصطلح جديد ولد في القرن العشرين ، فما علاقته بما مضى لـ 14 من القرون ؟ المجتمع المدني هو "مجموع المنظمات والمؤسسات غير الحكومية التي تظهر مصالح المواطنين وإرادتهم". يشمل المجتمع المدني الأسرة والمجال الخاص ، ويشار إلى "القطاع الثالث" في المجتمع ، المتميز عن الحكومة والأعمال. من قبل مؤلفين آخرين ، يستخدم "المجتمع المدني" بمعنى (1) مجموع المنظمات والمؤسسات غير الحكومية التي تعبر عن مصالح وإرادة المواطنين أو (2) الأفراد والمنظمات في مجتمع مستقل عن الحكومة. في بعض الأحيان يتم استخدام مصطلح المجتمع المدني بمعنى أكثر عمومية "عناصر مثل حرية التعبير ، والقضاء المستقل [5] ، وما إلى ذلك ، التي تشكل مجتمعا ديمقراطيا" (Collins English Dictionary ) لا سيما في المناقشات بين المفكرين في أوروبا الشرقية والوسطى ، ينظر المجتمع المدني أيضا كمفهوم للقيم المدنية. أحد الممثلين المعروفين على نطاق واسع لهذا المفهوم هو المنشق البولندي السابق آدم ميتشنيك [6].

شهدت العصور الوسطى تغييرات كبيرة في المواضيع التي ناقشها الفلاسفة السياسيون. بسبب الترتيبات السياسية الفريدة للإقطاع ، ولقد اختفى مفهوم المجتمع المدني الكلاسيكي عمليا من النقاش السائد. بدلاً من ذلك ، سيطر الحديث عن مشاكل الحرب العادلة ، وهو انشغال قد يستمر حتى نهاية عصر النهضة. ومجئ توماس هوبس وجون لوك وجان جاك روسو وصولا الى امانويل كانت وهيغل وماركس وانتهاء بدولة (الولفير = دولة الرفاهية) . وأسألك : ماذا فعلت القوانين ، واين كان المجتمع المدني ابان القرن العشرين عندما اندلعت اقصى حربين عالميتين في التاريخ ، وذبح الملايين من البشر في قلب أوروبا ؟

### **رابعا : يقول ادونيس " بقيت مجتمعاتنا تراكمات قبلية وانتماءات طائفية .. والتوفيق والتفريق بين جماعات مختلفة جذريا بعضها عن بعض " .**

لا ليست كل مجتمعاتنا لها ما وصفت ، اذ يزداد ذلك التنوع من التناقضات في كل من سوريا والعراق ، واذا كانت التراكمات القبلية تنتشر في بعض اجزاء الجزيرة العربية ، فان الانتماءات الطائفية تتفاقم في كل من لبنان وسوريا والعراق نظرا لازدحام الطوائف الدينية والمذهبية والباطنية فيها منذ العصور الوسطى وما عاشته مجتمعاتنا من مشكلات وتناقضات ، وهي فعلا جماعات مختلف بعضها عن الآخر في بحر من الاغليات .. لقد عشت سنوات من حياتي في بلدان عربية عديدة سواء في المشرق ام المغرب العربيين ، فلم اشهد اية تراكمات قبلية ، او انتماءات طائفية في مصر او تونس او المغرب او الجزائر .. ولكن تحولت مجتمعاتنا في ثقافتها من مجتمعات مدنية الى مجتمعات مختلطة تطغى على بعضها الثقافات الريفية والشعبوية المتخلفة .. وحتى مجتمعاتنا العربية لم تعرف الانتماءات الطائفية الا في الاربعين سنة الاخيرة وبالذات بعد متغيرات العام 1979 [7] ، اذ كانت النزعات الوطنية هي المسيطرة في مجتمعات اغلب بلداننا العربية ، وكانت مجتمعات الجزيرة العربية تسودها المشيخات القبلية ، والتي تحولت اليوم الى كيانات سياسية مشيخية تتركز عند السواحل كون الدواخل اكثرها لا يصلح لنمو المجتمعات نظرا لطبيعتها الصحراوية .

## خامسا : يقول ادونيس " ثقافة التسامح ثقافة قروسطية .. الغزو والفتوحات والتسامح عنصري والمساواة اقرار في مجتمع يحكمه القانون " .

ليس هناك ثقافة تسامح بل هناك نزعة مسامحة تستخدم اجتماعيا من اجل ترسيخ ثقافة تعايش ، والفرق بين اللفظين كبير جدا ، وحتى ان غلبت في بعض مجتمعاتنا كلمة "التسامح" ، فهو يعبر عن واقع مجتمع متسامح ، ولولا ذلك لما تعايش الناس في المدن والارياف في قسما ت اوطاننا مع بعضهم الآخر باستثناء من يريد العزلة او فرض العزلة على نفسه ، فكل اليهود الشرقيين في مجتمعاتنا عاشوا في بعض مدننا واريافنا ، ولكن في محلات او حواري خاصة بهم على غرار ما عاشوا عليه في اوربا متمثلا ذلك في " غيتات ( مجموع : غيت ) " او كما يطلق عليها بـ Shtetl ، اذ كانت لهم غيتاتهم المنفصلة [8] .. وعاش اليزيدية لوحدهم في شمال العراق منعزلين ومتسامحين عن المجتمعات المتنوعة ، بالرغم من مشكلاتهم الداخلية في ما بينهم وخصوصاً في الجبال اتقاء التصادم ، اسوة بالعلويين النصيرية في سوريا وجنوبي تركيا ، اذ بقوا مئات السنين قد فرضوا على انفسهم العزلة في جيلة وضواحيها جنوب اللاذقية مثلا وانت منهم يا ادونيس ، وهم يخفون كل شئ يخصهم عن العالم، ولكنهم خرجوا الى الحياة ، وانخرطوا في الحياة السياسية والاجتماعية من دون ان تسحقهم الغزوات والفتوحات .. والتاريخ لا يحدثنا ابدأ عن غزوات قام بها اهل الشام واهل حلب انفسهم ضد النصيرية العلويين أو غيرهم ، الا ان كانت هناك قوى اجنبية مهيمنة على الاوطان ، ويكتشف المجتمع من يتواطئ معها ، او اكتشف الناس طوابير خامسة كي تتحالف مع الاعداء ضد اهلها عبر التاريخ !

وعليه ، فكيف يمكن اعتبار التسامح ثقافة قروسطية ؟ وكيف يكون التسامح عنصري ؟ واذا كان القانون رديف الدولة الحديثة ، فهل خليت تواريخنا من تجارب مساواة وعدل يا ادونيس ؟ ما ركائز الاخلاقيات العربية التي عبر عنها بـ " مكارم الاخلاق " ؟ وما منظومة القيم العربية التي عاشت عليها مجتمعاتنا ازمة طوالياً ؟ لماذا تغيب عن قصد يا ادونيس كل الايجابيات كالاباء والخيرة والعفة واغائة الملهوف والكرم والنخوة والمروءة وغيرها من النزعات السايكلوجية الرائعة التي لا تجدها لدى تواريخ مجتمعات أمم اخرى ؟؟ اذا غابت مثل هذه النزعات اليوم نتيجة سوء انظمة الحكم وانعكاساتها على الانظمة الاجتماعية العربية مع سياسات تربوياتها الفاسدة في مثل هذه الازمنة ، فهل معنى ذلك ان مجتمعاتنا لم تعرف روح الانفتاح .. ؟ كيف عاملت مجتمعاتنا كل الذين نرحوا اليها ، واستوطنوا بلداننا مثل الاتراك واليونان والفرس والطلين والارمن والبلوش والجركس والشيشان وحتى بقايا الصليبيين والنتار والهنود وغيرهم ؟

## سادسا : يقول ادونيس : " الثورة اتسخت اذ يقوم بها متطرفون متفسخون اكثر من المسؤولين "

انت تدرك جيدا يا ادونيس ان الثورات يقوم بها الاحرار .. وان الثورات العربية التي انفجرت نهاية 2010 كانت في بدايات الامر سلمية ومدنية لاناس اغلبهم من الشباب التائه ، او الجائع ، او العاطل .. طالبوا بتحسين احوالهم المعيشية واصلاح انظمتهم السياسية والاقتصادية والقضاء على الفساد ، ولكنها ثورات استلبت من قبل جماعات وانظمة سياسية دينية وطائفية ، واصبحت سلعة تباع وتشرى من قبل سلطات ودول حاكمة عربية وغير عربية ، اقليمية وأجنبية .. في زمن يتصارع فيها الاسلام السياسي مع بعضه بعضاً .. وكانت مجتمعاتنا ضحايا ذلك الصراع .. ابحت عن المتطرفين المتفسخين ستجدهم في كل مكان ، وعند كل ملة ولدى كل نظام سياسي جائر .. وكنت أمل ان تكون اكبر من ذلك في توصيف الثورات وقبرها من قبل كل الاطراف المشاركة والممولة والاجنبية والداخلية والخارجية .

## سابعا: يقول أدونيس " نحن الان في مرحلة انقراض نحن بحيرة تجف مليئة بالاسماك الذي ياكل بعضه بعضا

من يكون هذا " نحن " ؟ يا ادونيس تصورت انك اكبر عقلاً وارجح فهماً من طرح هذا التوصيف في الانقراض .. من يكون في مرحلة الانقراض ؟ ومن قصدت بوصفك نحن بحيرة تجف ..؟؟ وعندما تجف البحيرة ستجد كلّ الاسماك ميتة .. ولكن البحيرة لن تجف ابداً .. مرت مجتمعاتنا ( العربية بالذات ) بتواريخ صعبة جداً وجابهت تحديات كبرى استجابت لها في ازمة متعددة ، ولم تستسلم ابداً .. مجتمعات عربية واجهت الاغريق والحيثيين والرومان والساسانيين والوندال والبرابرة والقوط والمغول من قبل جنكيزخان وهولاكو ، وتثار تيمورلنك ، والصليبيين لمئات السنين ، ثم المستعمرين الاوربيين المتنوعين من هولنديين وبرتغاليين وفرنسيين وبريطانيين واطليان واسبان وغيرهم ناهيك عن تأسيس كيان اسرائيل في قلب فلسطين وصولاً الى الامريكان والروس دون ان تنقرض مجتمعاتنا .. انها مجتمعات حية تمرّ اليوم في ازمة صعبة ، وتتلبسها انقسامات دينية ومذهبية وطائفية وهي بحاجة الى علاجات وخطط واصلاحات .. وتتعرض بعض مدننا للانسحاقات المدمرة من قبل انظمة سياسية جائرة ، ولكنها لن تموت ابداً ولن تنقرض . ربما ستقرض بعض الاقليات السكانية في سوريا والعراق مثلاً بسبب الابدانة المنظمة والهجرة والنزوح ، ولكن سترجع الحياة يوماً .. ويقول الحكماء : " الحياة تستمر طالما هي مستمرة انفعالاتنا، وبدونها تصبح الحياة غباراً فحسب " .

## ثامنا : يقول ادونيس : " الخروج من هذا السياق التاريخي القطيعة مع الماضي ، والخروج الى القانون لا القبيلة ولا الدين ولا الطائفة ولا العشيرة .. " .

لقد فضّ ادونيس المشكلة التاريخية بعدد من الكلمات مقترحاً الخروج من هذا السياق التاريخي مستخدماً القطيعة مع الماضي، ولا ادري هل قرأ مفهوم القطيعة الايستيمولوجية لدى المفكرين والنقاد الفرنسيين ، ام لا ؟ لقد ادرك معناها كلّ من الاساتذة عبد الله العروي ومحمد عابد الجابري ومحمد اركون بتأثرهم من دون استخدام المطلقات في توظيف "القطيعة" ، بل فهم الماضي بأشكال نسبية ، وليدرك ادونيس ومن هم على شاكلته وما اكثرهم اليوم ، بأن مجتمعات الدنيا كلها لم تخرج من سياقاتها التاريخية ، بل نجحت في تجديد أساليبها في الحياة ، وليس هناك آية أمة من الأمم تنكر لماضيها ، فكلاً تعز بتواريخها ، وهي تتعلم منها ، وهي تميز بين ايجابيات التاريخ وسلبياته .. تواريخنا يا ادونيس ليست بهذا السوء الذي تتحدّث به بعصبية نابغة من كراهيتك لها ، كما يبدو ذلك من حديثك المتحامل ، وهي صفة لا يتمتع بها العلماء ..

لقد وقف المئات من المؤرخين والمستشرقين وقفات علمية رائعة ازاء تواريخنا العربية والاسلامية، ووصفوا صفحات منها بالمجد والعظمة والخلود ، ويكفي ان ازدهار حضارتنا في التاريخ الوسيط ، والتي اشترك فيها الجميع ، وساهمت في صناعتها كلّ الاديان وكل الاعراق ، وكل الملل اذ استخدم الجميع في بيئاتنا الثقافة العربية ، وأغنيت المعرفة بالمزيد من المنجزات العظمى.. كانت هي حلقة الوصل بين الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة ، فلن تنشأ النهضة الاوربية الحديثة الا من خلال المدارس العلمية العربية الاسلامية ، واشير عليك بقراءة ما كتبه ونشره غوستاف لوبون[9] وجورج سارتون [10] وارنولد توينبي[11] وزيجريد هونكة[12] وهاملتون كيب[13] ورينولد نيكلسون [14] وروبرت منتران [15] واندرية ميكال [16] وجاك بيرك [17] وكليفورد بوزورث[18] وغيرهم .

**تاسعا يقول أدونيس : " الاسلام رسالة ماتت مع محمد واصبحت ايدولوجية .. وتحويل الاسلام الى سلاح والى ايدولوجية .. اربعة خلقاء مؤسسين ماتوا قتلا ويجب ان نتذكر ماذا حدث للامويين وماذا فعلوا ، وماذا حدث للعباسيين وماذا فعلوا .. " ..**

اي اسلام تقصد يا ادونيس ؟ اي اسلام تريد ؟ اذا كان الاسلام السياسي والمذهبي والطائفي المعاصر قد انتهك حياتنا العربية ومزق شمل مجتمعاتنا العربية والاسلامية ، فان ديانة الاسلام لم تنزل لاغراض سياسية ، بل عقيدية أسوة بالديانات الاخرى ، ولم تعرف تلك الديانة عند ولادتها المذاهب والطوائف والملل والفرق عند مجيئها ، كما لم يعرف السيد المسيح وحواريه الانقسامات بين الاريوسيين والاثنوسيين التي حدثت لاحقا ، ولم تعرف المسيحية الاولى الصراعات الدموية التي عاشتها الديانة المسيحية وخصوصا بين الكاثوليكية والارثوذكسية ابان العصور الوسطى .. مع بقاء الهراطقة والمذاهب الدينية . كم كنت اظنك يا ادونيس ، أنك قارئ جيد للتاريخ ، ولكن خاب ظني فيك ، فما علاقة الاسلام كدين وعقيدة في بداياته بمصرع الخلفاء الاربعة المؤسسين وتباين سياساتهم في الدولة الناشئة ؟ وهذا ينسحب على الامويين ( في الشام والاندلس معا ) والعباسيين في بغداد ، مع حكم استمر لأكثر من ستمائة سنة ، وينبغي ان تدرك ان ليس هناك حكومات مثالية وامبراطوريات ملائكية ابان العصور الوسطى ، ولكن ما كانت للعرب ان تقوم قائمة لولا انجازاتهم التاريخية ، وسواء اعتبرت سلبية كارثية واعتبرها غيرك ايجابية وحضارية ، فينبغي عليك ان تميز وتفرق بين التاريخ السياسي والحضاري لأية أمة ، وما حصيلة تلك المنجزات الكبرى وتأثيرها في تاريخ العالم .. واذا كانت الغزوات والفتوحات التي تصفها بالدموية قد اوصلت العرب الى اسبانيا وفرنسا غربا ، فان التجارة والرحلة والمعرفة والقيم الاخلاقية قد اوصلت العرب مع رسالة الاسلام الى اعماق آسيا الوسطى وجنوب شرق آسيا .. واذا كان الامويون قد حكموا دمشق 91 سنة ، فان الامويين في الاندلس حكموا لأكثر من 275 سنة ، وحكم العباسيون لأكثر من 500 سنة ، وشهد العالم عصرذاك تطورا عظيما في المعرفة الجغرافية والبلدانية والفلك والارصاد والرياضيات والطب والجراحة والعمارة والكيمياء وعلم الجبر والاداب والفنون والموسيقى من خلال الثقافة العربية القديمة ناهيك عن علوم اللغة وغيرها .. واعلم ان لولا ذلك التاريخ الحضاري المتصف بانفتاحه وانسجامه ومرونته لانقرضت العربية كما انقرضت رصيفاتها الاخرى .

وبالرغم من تموجات التاريخ السياسي لدى العرب والمسلمين ومثالب بعض عهوده ، فقد انجب العديد من الرجال العظماء من العمالقة البناة المسلمين الذين صادفوا امامهم تحديات قاهرة ، ومؤامرات بشعة ، وتحالفات صعبة واتهموا باشنع التهم . ويكفي ان اذكرك ان ابا جعفر المنصور بني بغداد التي غدت قبلة العالم الوسيط ، وان المستنصر بالله بني الجامعة المستنصرية ، وان عبد الرحمن الناصر بني قرطبة العظيمة ، وان القاهرة المدينة الرائعة والازهر الشريف اقتربنا باسم المعز الفاطمي .. وغيرهم مقارنة بالغزاة الذين دمروا كياناتنا ، ومزقوا مجتمعاتنا ، وفرقوا شملنا ، فلا احد ينسى ما الذي فعله هولاءكو ببغداد ، وما الذي فعله تيمورلنك عندما احرق دمشق كلها بعد تدميره مدنا اخرى ، وما الذي فعله الصليبيون من اجرام ليس ضد المسلمين حسب ، بل حرب الكاثوليك اللاتين ضد السيكلاريين الشرقيين كالارثوذكس والاقباط وغيرهم من الذين اسموهم بالهراطقة ..

واعود لاذكرك يا ادونيس بأن الاسلام لم يمت كرسالة مع محمد - كما تقول - ، اذ بقي " رسالة " قابلة لأن تكون رسالة انسانية وحضارية للبشر كلهم في الدنيا ، او ان تكون رسالة سياسية او ايدولوجية لفئة محدودة من الناس عاشوا وماتوا من اجل السلطة . واعتقد ان ليس هناك في الاسلام بحد ذاته كديانة اية مشكلة بقدر ما تتواجد المشكلة لدى المتطرفين المتعصبين الاصوليين باتجاهه او بالاتجاه المضاد له من الاعداء المتعصبين اللاتنيين المنحرفين ضده .

**عاشرا : يقول أدونيس " وكيف اتت الدولة العثمانية ؟ 400 سنة حكمت العالم العربي .. 400 سنة كان العرب صحراء .. دولة لا قيمة لها على الاطلاق ابدأ , ما لها قيمة ! مين تركيا ؟ مين الدولة العثمانية ؟ دولة لا تعرف الا العنف والارهاب والقتل .. " .**

لا يا ادونيس ، ما عهدتك بهذه المستوى من فقر المعرفة ، وانت تطلق الاحكام التاريخية التي يخشى كبار المؤرخين من اطلاقها ، او يتنازلون عن عشر معشار نحو هذا المستنقع ، ويصعب عليهم ان يكونوا بمثل هذا المستوى الضحل من التفكير .. كنت اتمنى عليك ان تقرأ تاريخ الدول المقارن ، وتقف قليلا عند تاريخ هذه الدولة التي وصفتها بأن لا قيمة لها لتجد نفسك من الضالة والاستخفاف . وكما اتمنى ان يقرأ المرء قبل ان يطلق مثل هذه الاحكام لعشرات او مئات المؤرخين القدماء والمحدثين . انني اتأمل فقط كم صرف العشرات والمئات من المؤرخين والباحثين والمستشرقين ازمانهم وجهودهم واتعابهم واسفارهم وهم من بلدان عدة في العالم لدراسة تواريخ وموارث هذه الدولة العثمانية ( التي وصفها ادونيس بان لا قيمة لها ) ..

وكما هي الموضوعية مهمة في درس التاريخ ، وكما هي النسبية مطلوبة في تقويم الاحداث والدول والمجتمعات .. من التفاهة ان يأتي احدهم وهو لا يعرف شيئا عن بنية تاريخية قديمة دامت اكثر من ستة قرون ليقول بأنها لا قيمة لها .. لست مدافعا عن تاريخ هذه الدولة او تلك ، ولكن لا يمكنني قبول مثل هذه التهريجات الاعلامية المقصودة التي تزيّف الحقائق التاريخية ، وتوهم الناس بالمثاليات والمخيالات المثيرة للاعجاب .. ربما كانت الدولة العثمانية لا تعرف الا العنف والارهاب والقتل ، ولكن اسألك هل كانت كل الدول الكبرى في التاريخ مسالمة وقانونية ومثالية وانسانية في سياساتها ؟؟ ، ان الدولة العثمانية عرفت كيف تدافع عن الارض والوجود ازاء الامتدادات الصليبية في البحار .. صحيح انها سحقت البيزنطيين ، وهيمنت على الكنيسة الشرقية في القسطنطينية عام 1453 ، ولكن الكنيسة الغربية في روما بقيت تتفّرج على مأساة الارثوذكس وهي تشمت بها ! وكانت للدولة العثمانية نظمها وقوانينها وقدرتها ومؤسساتها في حماية الشرق الاوسط كله من توغل البرتغاليين والهولنديين في البحار الشرقية .. لم يكن لا العرب ولا الارمن ولا الكرد ولا القبط ولا الامازيغ ولا غيرهم في صحراء يا ادونيس .. كانت للمدن العربية وغير العربية حياتها الاقتصادية وتقاليدها الاجتماعية ونظمها التعليمية وثقافتها العربية ومدارسها ، واذا كانت مجتمعاتنا العربية قد غرقت بالطرق الصوفية والتقاليد البالية ، فلم تكن بقية المجتمعات الشرقية بأحسن حالا منها ، وكما تمنيت على ادونيس واضرايه قراءة طبيعة الحكومات المحلية التي نشأت ابان القرن الثامن عشر ، وليقف على اوضاع دمشق عصرذاك - مثلا - ليرى حجم ما كان فيها من تطورات اقتصادية .. ومن قبلها مدن فلسطين الساحلية المتطورة ابان القرن السابع عشر ، وما شهدته مصر من تطورات كبرى ابان التاسع عشر .. قد نخالف سياسات محلية اتبعت من قبل العثمانيين ازاء المتمردين في العراق او بلاد الشام او اليمن ، مع استخدام القسوة وسوء الادارة ولكن ما ينفعا هو المحصلة التاريخية .. وعلى ادونيس واضرايه ان يفصل بين الاوضاع التي كانت سائدة قبل 1909 ، والحالة التي فرضتها سياسة الاتحاديين ليس على العرب وحدهم بل على الاغريق والبلغار والارمن وغيرهم مما قاد الى الثورات والانفصال . قرن كامل مضى وقد تربي المجتمع العربي على اوهام وشعارات ومثاليات كالتالي يرفعها أدونيس ، حتى قيّض للعرب العديد من المؤرخين العرب الموضوعيين الذين تعبوا من اجل كشف حقائق تاريخية ، وفهموا الحقبة العثمانية فهما علميا انت من ابعد الناس عن فهمها او حتى الاقتناع بها ، لأنك تربيت على اسس خاطئة . واليوم اسألك عن مجتمعاتنا العربية وقد تحررت من الهيمنة العثمانية منذ اكثر من مائة سنة .. كيف تصفها وقد نالت استقلالها واستعادت كرامتها ؟ هل ان الطغاة والمستبدين العرب الذين استباحوا مجتمعاتنا ، وسحقوا مدننا ، واهلكوا الحرث والنسل بعد ان فسدوا في الارض .. كانوا من نسل آل عثمان ؟

## استخلاص توصيات

واخيرا ، اود ان أنبه ادونيس الى بعض الملاحظات التاريخية التي ينبغي التفكير فيها طويلا قبل ان يقم نفسه في مجال يفتقر فيه الى الخبرة والمعرفة :

1/ لا يمكنك ابدأ ان توغل في تصوير تاريخنا بهذه البشاعة كونك فاقد الانتماء اليه ، وتسعى الى ان يفقد كل الآخرين انتماءهم اليه ، فمن لا تاريخ له لا جلد له ، اذ لا يمكنه ابدأ ان يستعير جلد غيره ليتلبسه . وانا ادري ان هناك من يصفق لك كونك تشبع ما يريده ، ولكن مشاكستك غير معرفية ، وهي لا تنفع المعرفة ، وهي تسيء لك ولا تنفعك ابدأ .

2/ اتمنى عليك ان لا تعمم فهمك الخاطئ للقطيعة التاريخية او المعرفة لتجعلها قطيعة مع الماضي ، او كراهية للتاريخ ، فلم يقل ذلك غيرك من الذين نادوا بالقطيعة ، اذ انهم آمنوا بأن لا معرفة ابيستولوجية للامور الا من خلال فهمها وادراك قيمتها في ازمنتها نفسها ، واسلوب القطيعة المعرفية عنها ، وراجع غاستون باشلار Gaston Bachelard في ذلك [19] .

3/ لا يمكنك ابدأ ان تقف عند المثالب والسلبيات التي حدثت في تاريخنا السياسي لتعممها على كل التاريخ السياسي الذي شهد تطورات واسعة في عهود ومراحل تاريخية متنوعة في التشريعات والنظم والقوانين والشرائع على ايدي خلفاء وزعماء وسلطين ، وما حدث من تطورات في المدن والزراعة والري والمدارس والجامعات والعلوم والمكتبات والنظم الزراعية والاصناف الصناعية الحرفية والتجارة .. الخ هو كثير جدا

4/ ونسيت او تناسيت يا ادونيس ما فعله الآخرون بمنطقتنا من خلال حروبهم وغزواتهم لماذا لا تذكرها ابدأ ؟ ماذا فعل الصليبيون بمنطقتنا ؟ ومن تحالف معهم ؟ ماذا فعل المغول والتتار بمدننا ومجتمعاتنا ومدارسنا ؟ ومن تعاون معهم ؟ ماذا فعل فرسان القديس يوحنا بشواطئنا العربية ، ومن خان وطنه وتجسس على اهله ؟ ماذا فعل الاسبان الكاثوليك باهل الاندلس عربا ويهودا وامازيغا ومحاكم التفتيش خير دليل على بشاعة تاريخهم ؟ ماذا فعل البرتغاليون في بحارنا العربية ؟ ماذا فعل الفرنسيون والبريطانيون باوطاننا التي قسموها ؟ ماذا فعل الصهاينة باهلنا في فلسطين على امتداد القرن العشرين ؟ وماذا فعل الاميركان والروس عند فاتحة القرن الحادي والعشرين بمنطقتنا العربية اليوم ؟

5/ كن منصفا با ادونيس ، واعلم ان الانسان يبقى يتعلم كلما مر به الزمن ، واحنت ظهره كل السنين ، وان تدرك ان المؤرخ لا يمكنه ان يكون الا مع الموضوعية حتى وان كانت له مواقف ايدولوجية او طائفية او مذهبية من تواريخ معينة .. وان يكون منهجيا بحيث يدرك ان التاريخ ليس مجرد وجهات نظر ، بل هو معلومات لا تقبل التزييف او التشويه جراء ايدولوجيات خفية وباطنية قد يحملها البعض في اعماقه .

6/ ان التعصب للشئ هو نفسه مقايسة ان كان ضد الشئ ، فان كان هناك متعصب لدين معين ويغالي في التطرف والتعصب الاعمى له فهو مثل اي متعصب ضد ذلك الدين ويغالي في مقتته له وكراهيته له . وهكذا بالنسبة لمن يتعصب لتاريخ دولة معينة او لبطل معين في التاريخ او عقيدة او مذهب فهو يساوي كل من يغالي في الضد من كل ذلك . وعليه ادعوك ان تكون متسامحا مع نفسك اولا ، وتبعد نفسك عن الغلو والتعصب ثانيا ، وان تكون موضوعيا ومتوازنا في تقديرك الامور ثالثا .. وان تكون هادئا وتمتلك نسبية في التقدير ، وان تخفف من اطلاق الاحكام الارتجالية رابعا .. وان تكون واقعيًا بعيدا عن اللائكية والتعصب للاضداد خامسا ، وان تعيش في زمنك دون ان تسقط افكارك وارائك وبعض المفاهيم الحديثة على الماضي ، وان تعيش التاريخ لا ان تسحب اليك كي تدينه على هواك سادسا .

تنشر على موقع الدكتور سيار الجميل

<http://sayyaraljamil.com>

ونشر النص بلا هوامش في صحيفة قريش / لندن يوم 10 / 4 / 2018



[1] حوار ادونيس على الرابط التالي :

<https://www.youtube.com/watch?v=0tpeTMxcuiw>

[2] انظر :

Wittfogel ،Karl ،Oriental Despotism; A Comparative Dstudy of Total Power ،) Yale University Press, 1957), pp. 56-9.

[3] حول هذا " الموضوع " ، راجع المراجع التالية:

Fried, Morton H. The Notion of Tribe. Cummings Publishing Company, 1975.

Helm, June, ed., 1968. Essays on the Problem of Tribe, Proceedings, American Ethnological Society, 1967 (Seattle: University of Washington Press).

James, Paul (2006). Globalism, Nationalism, Tribalism: Bringing Theory Back In. London: Sage Publications.

James, Paul (2001). "Relating Global Tensions: Modern Tribalism and Postmodern Nationalism". Communal/Plural. 9 (1).

Nagy, Gregory, Greek Mythology and Poetics, Cornell University Press, 1990. In chapter 12, beginning on p. 276, Professor Nagy explores the meaning of the word origin and social context of a tribe in ancient Greece and beyond.

Sutton, Imre, Indian Land Tenure: Bibliographical Essays and a Guide to the Literature (NY: Clearwater, 1975): tribe—pp. 101–02, 180–2, 186–7, 191–3.

Renfrew, Colin, and Paul G. Bahn. Archaeology: Theories, Methods and Practice. New York: Thames and Hudson, 2008.

[4] André Raymond, The great cities in the sixteenth to eighteenth centuries: An introduction. New York University Press, 1984. See also, André Raymond, Arab cities in the Ottoman period: Cairo, Syria and the Maghreb. Ashgate Variorum, 2002.

[5] Alagappa, Muthiah. Civil Society and Political Change in Asia. Stanford: Stanford University Press, 2004.

Colletti, Lucio. 'Introduction', in Karl Marx, Early Writings, Pelican, 1975, pp. 7–56.

Edwards, Michael. Civil Society. Cambridge, England: Polity Press, 2004..

Draper, Hal. Karl Marx's Theory of Revolution (Volume 1: State and Bureaucracy, Volume 2: The Politics of Social Classes). New York: Monthly Review Press, 1977 & 1986.

Ehrenberg, John. Civil Society: The Critical History of an Idea. New York: New York University Press, 1999.

Ginsborg, Paul. Italy and Its Discontents: Family, Civil Society, State (2003)

[6] "Civil Society". Collins English Dictionary – Complete and Unabridged 11th Edition. Retrieved 2 August 2012 from CollinsDictionary.com website:

[7] سيار الجميل ، تحولات الازمنة : رؤية عربية للتحقيب التاريخي ، ط1 ( بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2017 ) ، ص 265.

[8] Petrovsky-Shtern, Yohanan . The Golden Age Shtetl: A New History of Jewish Life in East Europe. ( Princeton, NJ: Princeton University Press. 2014). Cf. Shandler, Jeffrey (2014). Shtetl: A Vernacular Intellectual History. (New Brunswick, NJ: Rutgers University Press, 2014). .

[9] راجع : غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقله الى العربية : عادل زعيتر ( مصر : مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1969 ) .

[10] George Sarton , Introduction to the History of Science (I. From Homer to Omar Khayyam, 1927 — II. From Rabbi Ben Ezra to Roger Bacon, pt. 1-2, 1931. — III. Science and learning in the fourteenth-century, pt. 1–2, ( Baltimore: Williams & Wilkins, 1947-48).

[11] Toynbee, Arnold J. A Study of History abridged edition by D. C. Somervell, 2 vols, ( Oxford University Press , 1947); pp. 356-9.

[12] زيغريد هونكه ، شمس العرب تسطع على الغرب : اثر الحضارة العربية في اوربه ، نقله عن الالمانية : فاروق بيضون وكمال دسوقي ، راجعه ووضع حواشيه : مارون عيسى الخوري ، ط 8 ( بيروت : دار الجيل & دار الافاق الجديدة ، 1993 ) .

[13] Hamilton Alexander Rosskeen Gibb, Studies on the Civilization of Islam , ( Princeton U. Press. 1982) , See also his book in two vols, Islamic Society and the West with Harold Bowen (vol. 1 1950, vol. 2 1957).

[14] Reynold Alleyne Nicholson, A Literary History of the Arabs (C. Scribner's sons, 1907).

[15] Robert Mantran, L'Empire Ottoman du XVIe au XVIIIe siècle : administration, économie, société ( Londres : Variorum reprints , 1984).

[16] André Miquel, La géographie humaine du monde musulman jusqu'au milieu du 11e siècle, vol.3: ( Le milieu naturel., 1980).

[17] Jacques Berque, Mémoires des deux rives. Paris, Seuil, 1989

[18] Clifford Edmund Bosworth, The Islamic Dynasties: A Chronological and Genealogical Manual (Edinburgh University Press, 1980).

[19] Dominique Lecourt, L'épistémologie historique de Gaston Bachelard (1969). Vrin, Paris, 11e édition augmentée, 2002.